محاضرة حول الماركسية:

1 ـ مقاربة فلسفية في مفهوم الماركسية:

تُعرف الماركسية نسبة إلى "كارل ماركس" و"انجلز" اللذين تعاونا في تأسيس مذهب اقتصادي وسياسي أيديولوجي عرف بالماركسية، على الرغم من أن هذه الصفة "ماركسي" والاسم " ماركسية" لم يصدر عن ماركس نفسه وأصحابه، وإنما عن خصومه من أنصار" بانكونين" لما دب النزاع بين الفريقين، وأدى هذا النزاع إلى طرد أنصار "بانكونين" في الموتمر الدولي الذي انعقد في "لاهاي" 1872، وكان الخلاف بين الفريقين يدور حول أمور تتعلق بتنظيم الاشتراكية الدولية وبدور الدولة في عملية التطور نحو الاشتراكية. فكان أنصار "بانكونين" يرفضون تقوية اختصاصات المجلس العام للدولية الاشتراكية، كما كانوا يرفضون ديكتاتورية الطبقة البروليتاريا (طبقة الاجراء).

ومنذ أن بدأ الخلاف كان " بانكونين" يسخر من "ماركس" والماركسيين"، ويهاجم ديكتاتورية الشرذمة الماركسية المتسلطة على أنقاض الدولية على حد قوله. ووصف مؤتمر "لاهاي" بأنه تزييف ماركسي ورد عليه أنصار "ماركس" بنفس الطريقة فنعتوا خصومهم بتعت "البانكونيين". وهكذا كان اللفظ " ماركس " و"ماركسية" على لسان وبقلم أنصار "بانكونين" منطوياً على الذم "[1].

وعلى الرغم من أن نظريات "كارل ماركس" عرفت ونوقشت في روسيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فنادرا ما نجد استعمال اللفظ "ماركسية" للدلالة على مذهبه وآرائه. ولا تجد اللفظ في كتابات "بلخانوف" الذي صار ماركسياً بعد أن كان شعبياً، وبذلك بدأ يظهر استعمال اللفظ " ماركسية" في كتابات الروس خلال التسعينات من القرن الماضي.

2 ـ تمدد الماركسية:

لما ذاع صيت استعمال هذا المصطلح "ماركسية" وانتشاره في أوروبا في مستهل القرن العشرين، إذ اتخذ عدة مفهومات متباينة، فكان يعني في نظر علماء الاقتصاد نظرية في القيمة ووصف المؤرخ الانجليزي "أكتون دالهبرج" الجزء الأول من كتاب "رأس المال" بأنه قرآن الاشتراكيين" الجدد " وهو تشبيه سيرد مراراً فيما بعد، فمثلا ينعت "برترند رسل"كتاب "رأس المال" بأنه انجيل مشاعر الانتقام

البروليتارية" ، ويقول "برنرد شو" بلهجته الساخرة: " الماركسية هي مثل المورمونية، والفاشية، والامبريالية، وكل المذاهب التي تريد في الواقع أن تكون كاثوليكية جامعة النزعة".

3 ـ أسس الماركسية:

يلخص "كار ديل" الماركسية" في ثلاث نظريات تتعلق بالتطور الاقتصادي، هي: نظرية التجميع، ونظرية التبئيس، (جعل الناس بائسين)، ونظرية الأزمات. ويصف "بلانج" J.Plenge الماركسية بأنها اكثر من نظرية في الاقتصاد. فهي لم تقتصر على اعطاء صورة شاملة رائعة للحياة الاقتصادية في القرن التاسع عشرولم تر فيها مجرد جريان أعرج بغير تطور للإنتاج من خلال تبادل الاسهلاكيات وتوزيعها، بل رأت فيها تغييراً شاملاً وانطلاقاً متفجراً لقوى عاصفة تجري نحو انهيار نهائي، ويرى H. Schack أن الماركسية تتميز بأربع علامات:

1ـ فهي ايديولوجية* البروليتاريا؛

2ـ وهي تقوم على التجميع ؛

3ـ وهي اشتراكية علمية؛

4ـ وهي اشتراكية ذات نوعية انسانية

ويرى الاقتصادي الكبير "فرنر زومبرت" أن السر الحقيقي للماركسية إنما يقوم في التأليف بين الحياة الألمانية و الحياة الغربية. وعند "هاماخر" "أن مذهب المادية الديالكتيكية، وهو نظرة البروليتاريا في العالم وهو مزيج مهّجن من المثالية الألمانية والوضعية الفرنسية والفكر الاقتصادي الانجليزي، و"هاماخر"كان أول مؤلف غير ماركسي عرض النظام الفلسفي الاقتصادي للماركسية في كتاب له ظهر في سنة 1909.

وزعم "شميدت" F.J.Schmidt أن الماركسية هي الفلسفة الوحيدة في العصر الحاضر التي لها تأثير قوي في الواقع العملي، وأنها فلسفة من الطراز الكبير ...أعني فلسفة تحرك العالم وتعمل على تغييره، على ضوء ما يحققه نضال الطبقة الروليتاريا التي تسهم بدورها في تغيير مجرى التاريخ العالمي ، " أما من ناحية ماركس نفسه فقد تراءى له أن أبسط مخرج من هذه المتاهة من معاني الايديولوجيا

تتمثل في افتراض أولي بأنه لا وجه للمقابلة بين الاديولوجيا البروليتاريا وبين غيرها من الاديولوجيات، فهي اديولوجيا ممتازة لأنها تتكفل بتغيير العالم وانهاء وجود الطبقات وفي أعقابها الايديولوجيات نفسها؛ وهي إلى ذلك تختلط بالنظرية الماركسية نفسها"[1] .

هذا الاعتقاد الراسخ في العرف الفلسفي للماركسية، أن هذه الفلسفة لاقت اقبالاً كبيراً، أصبحت تستجيب لطموح الطبقة البروليتاريا، كما يزعم "ماركس" أنه بفضل الوعي الطبقي عند البروليتاريان وكثرتها العددية وتجميعها في اتحادات ونقابات، وبفضل بؤسها الشديد، فإنها ستستولي على السلطة، وتتحول من مستوى المغايرة إلى مستوى الانسان الكامل وسيسهل على البروليتاريا تحقيق هذه المهمة تزايد ضعف الرأسمالية بسبب الأزمات الاقتصادية المتوالية"[2] .

أصبحت الماركسية تؤمن ايماناً جازما بتحرر الشعوب من البؤس الذي تعاني منه، خصوصا "منذ فترة العصور الوسطى، التي تمت فيها عملية تشخيص من قبل انجلز وماركس الوضعية المأسوية التي حلت بأوروبا"[1] ، رغبة منهم توجيه اهتماماته نحو الوضع الاجتماعي والاقتصادي ،مما جعل الثقافة الماركسية تتمتع بهذه المكانة التاريخية التي تحظى بها، على أنها أصبحت أكثر تعبيراً عن الاوضاع المادية التي يواهها المجتمع حيال الاستغلال المفرط الذي يتعرض له من قبل الرأسمالية، والغاء الملكية الخاصة قد يعطي حظوظا كبيرة للطبقة البروليتاريا لانعاش وضعها المادي البائس، وبالتالي يتزايد الوعي التحرري لإنهاء مرحلة الهيمنة الاقتصادية الرأسمالية بعد أن كشفت عن أهدافها الدنيئة في حجب الوجه الانساني عنها.

4 ـ الماركسية والنزعة الانسانية:

لقد قسم "ريمون آرون" الماركسية إلى أسر مقدسة متباينة: فهناك ماركسية كنتية (نسبة إلى فلسفة كنت الأخلاقية) حين تضع الاشتراكية هدفاً لها حول ايجاد ضمير أخلاقي تجاه الواقع الرأسمالي، وهناك ماركسية هيجيلية تستند خصوصاً إلى "ظاهريات الروح" وهناك ماركسية ذات نزعة علمية مستمدة من كتاب ضد الدهريين، لكنها جميعاً تزعم أنها إنسانية النزعة.

إن نعت الماركسية بالنزعة الانسانية، يعني مباشرة البحث عن الجانب الانساني في هذه الفلسفة، والمقصود بهذا الوصف في واقع الأمر، ما يقابل الألوهية. "فماركس" يهدف إلى تحرير الإنسان من عبودية الألوهية. إذ أخذ بما قاله " لودفيك فيورباخ" من أن الدين يغاير الإنسان، أي يقف عثرة دون

تفتح قوى الانسان تفتحاً كاملاً. ومن رأي "ماركس" أن حل المشاكل الإنسانية ليس ممكناً إلا على المستوى الإنساني المحض، " فليس الوعي هو الذي يحدد الحياة، بل إن الحياة هي التي تحدد الوعي في وجهة النظر الأولى ننطلق من الوعي كما لو كان هو الفرد الحي، أما في الثانية، وهي وجهة النظر التي تواقف الحياة الحقيقية، فإننا ننطلق من الأفراد الواقعيين الأحياء أنفسهم ونعتبر الوعي فقط كوعي يتعلق بهم "[2] .

والانسان في نظر "ماركس " لا يعرف طبيعته الحقيقية؛ إنه يبحث عنها، كما يبحث عن شكل للاتحاد بالعالم وبني الإنسان من خلال مجرى المنازاعات التاريخية. والناس فيما بينهم متنازعون وكل فرد يعيش في تناقض مع ذاته. وعلى الرغم من أن الإنسان جزء من الطبيعة، فإنه يعيش بمعزل عن الطبيعة ، لأنه فقد ما يملكه الحيوان: أعني الانتساب التلقائي إلى العالم. والانسان قد انفصل عن الطبيعة وعن اخوانه في الإنسانية، يسعى إلى الاتحاد مع الطبيعة ومع إخوانه، إنه يعيش في صراع وتوتر، بيد أنه ينشد نهاية لهذا التوتر والصراع. ويأمل "ماركس" أن يحقق المستقبل والتصالح بين كل ما كان في صراع على مدى التاريخ: الوجود والآنية، الذات والموضوع، الانسان والطبيعة، الفرد والمجتمع، الانسان والوسط، الدولة والمجتمع، الفرد الخاص والمواطن والدولة، فهناك اذا كثير من الأمور التي تحتاج إلى انتشار الوعي كي تتحق الأهداف الانسانية، لأن " التحويلات الثورية للمجتمع غير ممكنة التحقق إذا لم تغير الانسان نفسه. وحزبنا ينطلق من وجهة نظر أن الانسان الجديد ليس فقط هدفا في غاية الأهمية ـ بل هو أيضا وسيلة ضرورية ولازمة للبناء الشيوعي "[1] .

يهدف "ماركس" من وراء هذه المساعي الفكرية إلى تشكيل حياة الانسان على الأرض تشكيلاً إنسانياً خالصاً، حتى يكفّ عن النظر إلى الوحدة والسعادة والحب على انها مثل عليا بعيدة المنال أو لن تتحقق على الأرض بل في حياة أخرى في السماء. وعلى مثال "فيورباخ" أخذ على الأديان أنها لم تهتم بالإنسان الحقيقي وأنها أحالت إلى عالم علويّ كلّ ما يحتاج إليه الإنسان : من وحدة وتفتح واجتماع. وفي رأي " ماركس " أن الدين تحقيق خيالي لماهية الانسان، لأن الكائن الانساني ليست له حقيقة واقعية محددة، لأنه قد يقع ضحية تأثير أيديولوجي قوي النفوذ، بسبب " ارتباطها بمؤسسات مكلفة بدعم وتحقيق المعتقدات المعنية"[1].

كذلك يأخذ " ماركس " على الدين أنه يفصل فصلاً قاطعاً بين حياة أرضية وحياة أبدية، ولهذا يدعو الفقراء إلى الاستسلام واليأس من الدنيا؛ لأن الفقراء في عادتهم ينتظرون الموت عاجزين مستسلمين، وينتظرون الجزاء في عالم آخر. ولهذا يقبلون دون تمرد ولا ثورة، أشكال الحكم الاستبدادية، وبقاء نظام الطبقات ولا يسعون للاتحاد فيما بينهم من أجل تغيير العالم، وبهذا يغايرون أنفسهم بواسطة الدينن ويحال بينهم وبين الفعل. ولهذا ينبغي كما يزعم "ماركس" على الإنسان ان يتحرر من مغايرة الدين له.

5 ـ النظرية الاقتصادية:

أما فيما يتعلق بنظريته في الاقتصاد، فإنه يرى أن السلع تتبادل بأسعار تحددها كمية العمل اللازمة لانتاجها وثمن العمل يحددها أصحاب الأعمال وفقاً لأقل ما يكفي لبقاء العمال على قيد الحياة وتناسلهم، لكن العمل ينتج سلعاً تزيد أجور العمال، والفارق بين المقدارين: مقدار السلع ومقدار أجور العمال يذهب إلى أصحاب رؤوس الأموال.

ويرجع "ماركس" بؤس الجماهير العريضة من العمال والأجراء إلى فعل قوانين اقتصادية، لكن يعزو هذه القوانين إلى الرأسمالية بخاصة، وهو يرى أن الرأسمالية هي مجرد مرحلة من مراحل الحياة الانسانية، فتنم عن التطور التاريخي، والرأسمالية تمثل مرحلة تاريخية سائدة ستقوم بتدمير نفسها بنفسها على أساس وجود تناقضات داخلية فيها، وستنشأ حينها مرحلة يسود فيها الأجراء، ويصبح المجتمع ناضج عقلياً وتقدمياً، ليس فيه أجور ولا طبقات اجتماعية، بل ولا حكومة، بل يصير تجمعاً حراً مؤلفاً من منتجين يعملون تحت رقابة واعية هادفة صادرة عن ذات أنفسهم، " إن الصراع الطبقي واقع تاريخي، ولكنه لا يجري بصورة رئيسية بين اطراف النزاع الاقتصاديين. والنظرية الماركسية، وهي تنزلق في وسواس الخصومات الجانبية بين عمال ومديري العمل، تمنع أصحابها من أن يروا التناقض الجديد؛ وهو اكثر أهمية حالياً؛ إن إضرابات العمال من أجل زيادة الأجور أو تحسين شروط العمل، دليل على عدم وجود صراع حقيقي، أو حرب حقيقية ، بل على وجود مناقشات قاسية بين شركاء"[1] رسخت بدورها آليات معينة في فهم فكرة الصراع.

ربما هذا الصراع سينكشف على ضوء استفحال أبعاده الأيديولوجية المحركة له وتأثيرها العميق على واقع حياة المجتمع، الذي يدفع إلى التفكير في الاستقرار على رؤية مشخصة للوضع الذي ينظم

وجودها، " فالتنظيم المثالي الذي تجعلنا الايديولوجيات الثورية تحلم به، هو في النهاية تنظيم مدرك فعلا، عند نهاية الانتصارات التي تدفع إلى تحقيقها، نظام مستقر نهائياً، وهذا الميل نحو الاستقرار يرجع إلى أن التمثلات الايديولوجيةرتبط بالثقل الملازملكل منظومات القيم"[1]، لأنه يكفي أن "تتعلق الايديولوجية إذن بعلاقة المعاناة التي تربط الناس بعالمهم وأن هاته العلاقة التي لا تظهر (واعية) إلا بشرط أن تكون غير واعية، يظهر أنها بنفس الكيفية، لا تظهر بسيطة إلا بشرط أن تكون مركبة وأنها ليست علاقة بسيطة وإنما علاقة بالعلاقات، إنها علاقة من الدرجة الثانية. فالناس لا يعبرون في الايديولوجية عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم بل عن (الكيفية) التي يعيشون بها علاقاتهم مع تلك الظروف الشيء الذي يفترض في ذات الوقت، علاقة حقيقية وعلاقة معاناة وخيال ووهم، فحينئذ تكون الايديولوجية هي التعبير عن علاقة الناس بعالمهم، أي بوحدة تلتحم فيها علاقاتهم الحقيقية بظروف عيشهم " [1].

أما عن رأس المال فإن "ماركس" يرى أن رأس المال هذا ليس شيئاً (نقوداً أو وسائل الانتاج) بل هو عملية دورية تسير على الدوام على المجتمع بأسره، وخطتها الرئيسة هي الانتاج، " يجابه للاقتصاد السياسي في بحثه عن القوانين الاجتماعية التي تهيمن على النشاط الاقتصادي البشري، ضابطا أساسياً، يتكون من اعتماد علاقات الانتاج على قوى الانتاج الاجتماعي، حيث أن مستوى معينا من أشكال التعاون وتقسيم العمل في عملية الانتاج "[3] .

كذلك ليس رأس المال سنداً قانونياً مثل الملكية القانونية الخاصة لوسائل الانتاج. إنما رأس المال نظام من العلاقات الاجتماعية خاص بالانتاج، لا يشمل إلا وجود فائض العمل. لكن فائض العمل اتخذ على مدى التاريخ أشكالاً أخرى غير شكل رأس المال. منها الريع الاقطاعي، فإنه هو الآخر شكل من أشكال فائض العمل، وكان على رأس المال القضاء عليه حتى ينمو هو على شكل أكثر انطلاقاً، إن رأس المال ليس إلا نظاماً من العلاقات الاجتماعية التاريخية، المؤقتة، الانتقالية، شأنه شأن مجموع الأشكال الاقتصادية للتبادل.أما المادية الجدلية والمادية التاريخية عند "ماركس" و"انجلز" فإنه تجمعه قواسم مشتركة في مواقفهما في الاشادة بالمادية التي تعبر عن ارادة طموحة للشعوب لكي تتحرر من مظاهر الاستغلال الذي فرضته الراسمالية المتوحشة.

لقد أخذت هذه الحياة الاقتصادية، تستوعب النظريات المادية التي أصبحت أكثر تطوراً في صياغة مبادئ فكرية وعلمية تؤسس بدورها للفعل الاقتصادي، فأوحت بأن هناك تغيرات كبرى سيقبل عليها المجتمع في تحول علاقات العمل والإنتاج والاستهلاك والثروة، وميلاد مفاهيم فلسفية ومادية تحركها الغايات الاقتصادية، إذ أكد "ريمون آرون" Raymond Aron (1905-1983) أن "ماركس" حقق سنة 1945 في كتابه " الأيديولوجيا الألمانية" قطيعة كبرى مع المراحل السابقة خلال مساره الفكري والفلسفي، بعدما كان فيلسوفاً، أصبح عالماً، يقول "آرون" في هذا الصدد: " منذ سنة 1848وإلى نهاية حياته، توقف ماركس أن يكون فيلسوفاً، وأصبح عالماً للاجتماع وعالماً للاقتصاد بصفة خاصة "[2].

إن اعتقاد الماركسية في تقديم حلول ممكنة حول الواقع الاقتصادي الذي مس عمق المجتمعات الأوروبية الغربية وما نجم عنها من أزمات مختلفة وطرح مشكلات العدالة الاجتماعية والحقوق، إلا أنها لم تفلح في تقديم العلاج المناسب للوضعية التي تعيشها الطبقة العمالية في العالم من بؤس وحرمان، يوحي بأن الوعي التاريخي الذي تتزايد وتيرته في صيانه الحرية الجماعية وفهم الجانب المادي لم يعد كافيا في امتلاك ناصية تغيير العالم نحو الأحسن .

المصادر والمراجع:

- عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2.

Armand Cuvillier : Vocabulaire Philosophique, Librairie Armand Colin, Paris 1956 , p.115.

[1] – جورج غورفيتش: دراسات في الطبقات الاجتماعية، الترجمة العربية الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1972، ص54.

[2] – عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2.

[1]- Jacques Derrida : Spectres de Marx, éditions Galilée, Paris, 1993,.

[2] - Marx – Engels : L'idéologie Allemande, trad, Auger Badia, Ed, sociales, Paris, 1968.

[1]- Philipe Bénéton : Introduction à la politique Moderne, Ed, Hachette, Paris, 1987 .

[1]- R. Boudon : L'idéologie, Ed, Fayard 1986.

[1] – ريمون رويه: نقد الإيديولوجيات المعاصرة، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات بيروت ـ لبنان ط1، 1978.

[1]- George Buby :Histoire et idéologies des sociétés, Ed, Gallimard, 1974.

[1]-Louis Althusser : pour Marx, Edition Flammarion, Paris 1972, p.240.

[3] – أوسكار لانكه: الاقتصاد السياسي، ترجمة محمد سلمان حسن، دار الطليعة بيروت ـ لبنان 1967 77.

[2]– Raymond Aron: Les étapes de la pensée sociologique, Ed, Gallimard 1967.